الإسلام والعلم

بين الأفغاني وريتان

الدكتور

محمد عثمان الخشت

كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الإســـلام والعلـــم

الإسلام والعلم

بين الأفغانى ورينان

الدكتـــور

محمد عثمان الخشب

كليـة الآداب ـ جامعـة القاهـرة

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــــــاب : الإسلام والعلم
بين الأفغانى وريـنان
المـؤلـــــف : د. محمد عثمان الخشت
تاريخ النشـــر : ١٩٩٨م
حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة

الناشـــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
شركه مساهمه مصرية
عبده غريب

المركز الرئيسى والمطابـــــع : مدينة العاشر من رمضان
المنطقة الصناعية (C1)
ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧
الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة٦
ت ، ف : ٢٤٧٤٠٣٨
رقـم الإيـــــداع : ٩٧/١٠٧٦٩
الترقيـم الدولـى : I. S. B. N.
977 - 5810 - 68 - X

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـداء

إلى الفيلسوف نظراً وحياةً :

أ.د. يحيى هويدى ..

مُقَدِّمَة

إن صلة الأفغانى بالفكر الغربى الحديث صلة مركبة، حيث تتشعب وتتداخل على أكثر من مستوى؛ مع أنها تدور فى فلك واحد هو توظيف الفكر الدينى فى سبيل إعادة بناء الواقع المعاصر، وتدشين النهضة، والتخلص من وطأة الاستعمار والتبعية والتخلف.

إن هذا الطابع الذى ميز موقف الأفغانى يبرز على نحو نموذجى فى المناظرة التى دارت بينه وبين رينان حول علاقة الإسلام بالعلم، كما يبرز فى توابع هذه المناظرة. وفضلاً عن إبراز الطابع الإصلاحي وسماته، تكشف المناظرة وتوابعها عن الطابع الذى اتسم به الاستشراق الفرنسى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ذلك الطابع الذى يبين الدور الذى قامت به العلمانية الفرنسية فى اتهام الإسلام اعتباطياً إما بنقص الروحانية أو بالجمود الدينى المناهض لحركة الارتقاء العلمى. وقد جاء الحكم الأول نتيجة المقارنة بالمسيحية؛ حيث لا يُنظر للإسلام وفق جدليته الخاصة، بل كانعكاس مقلوب لتاريخ المسيحية، فإذا كانت المسيحية رهبانية فإن الإسلام حسى، وإذا كانت المسيحية مسالمة فالإسلام محارب. وهكذا جاء الحكم على الإسلام بنقص الروحانية نتيجة عملية قلب عكسية، فى حين جاء الحكم على الإسلام بالجمود الدينى المناهض لحركة الارتقاء العلمى نتيجة قياس المثل، فإذا كانت المسيحية قد أعاقت حركة العلم فى أوربا، فإن الإسلام كذلك قد أعاق حركة العلم فى الشرق![1].

ولا تخرج الآلية التى حكمت موقف رينان من علاقة الإسلام بالعلم، عن تلك الآلية التى حكمت موقفه من علاقة الدين عامة من العلم الوضعى بعامة؛ إذ ثمة تنازع لدى رينان بين وعى عقلى يصدع بأمر مناهج العلوم

الوضعية وبين صبواته الرومانسية، بين محاولة الفكاك من التقليد المسيحى الغربى الظالم والمبخس للإسلام وبين حصر الإسلام فى عملية مواجهة حضارية مع الغرب.

وبالمثل فإن الآلية التى حكمت دفاع الأفغانى عن علاقة الإسلام بالعلم ضد اتهامات رينان، هى الآلية ذاتها التى حكمت من قبل دفاعه عن الدين بعامة والإسلام بخاصة ضد مطاعن الدهريين، مع التأكيد على فارق مهم، وهو أن آلية الدفاع ضد رينان انتهجت منهج العقلانية وتوشحت بالحداثة والوضعية والليبرالية، بينما آلية الدفاع ضد الدهريين ارتدت رداء الانشاء والخطابة والحماس وانتهجت منهج الجهاد المناهض للزندقة والإباحية.

ومع أن مناظرة رينان ـ الأفغانى لم ينته التعليق عليها حتى الآن، فإن من الممكن إلقاء أضواء جديدة عليها، عبر نقلها إلى دائرة أوسع من تلك الدائرة التى كانت محصورة فيها من قبل، من خلال ربط موقفى كل من رينان والأفغانى من العلاقة بين الإسلام والعلم بموقفيهما الأعم من الدين ككل، فى سياق عصرهما، وفى إطار الوضعية التاريخية والفلسفية التى كانا يعيشان داخلها.

د. محمد عثمان الخشت

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

القاهرة فى : ١٩٩٧ ـ ١٤١٨ هـ

وضعية حركة الاستشراق
فى القرن التاسع عشر

"إن الظاهرة الأكثر إشراطاً للرؤية الأوربية للشرق، اعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر بشكل خاص، هى الإمبريالية".

مكسيم رودنسون

جاذبية الإسلام ، ص ٥٦

وضعية حركة الاستشراق فى القرن التاسع عشر

"إن الظاهرة الأكثر إشراطاً للرؤية الأوربية للشرق، اعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر بشكل خاص،هى الامبريالية"[٢] هكذا وصف مكسيم رودنسون المسألة الاستشراقية فى القرن التاسع عشر؛ وإلى مثل هذا ذهب أليكس جورافسكى[٣] عندما أكد أن "علم الإسلاميات" ولد فى أحشاء المخططات الاستعمارية، أو على الأقل تزامن مع ارتفاع الأصوات الأوربية الداعية إلى "استعادة السيطرة على الأرض المقدسة من أيدى مغتصبيها المسلمين" عن طريق اتباع حملة من الاجراءات العملية ـ التطبيقية، فى مقدمتها إنشاء المدارس العربية فى الغرب كشرط لتحقيق المعرفة الدقيقة بعقلية العرب والعقيدة الإسلامية.

وكان هذا نتيجة التمركز الأوربى على الذات، الذى أصبح أكثر بروزاً عن ذى قبل؛ حيث تضخمت النزعة الغربية النفعية المليئة بالازدراء للحضارات الأخرى، وأصبحت الكونية الوحيدة الممكنة يتصورها الإنسان الغربى على شكل تبنى النموذج الأوربى بكل أبعاده ومستوياته[٤].

وقد تمخّضت هذه الحالة عن تيارين استشراقيين متفارقين :

أولهما الاستشراق التبشيرى، وثانيهما الاستشراق المناهض للاكليروس والمتحدر من أُرُومة فولتيرية. أما الاستشراق التبشيرى فكانت تقوم به الإرساليات المسيحية التى كانت تعزو التقدم الأوربى للدين المسيحى، والتأخر الشرقى للدين الإسلامى ! وكانت هجماتها على الإسلام تتسم بالعدوانية المتقنّعة بالحداثة مع أنها فى جوهرها امتداد لأساليب الجدال والهجوم التى مورست فى العصور الوسطى. وبالنسبة للاستشراق المناهض للإكليروس والمتحدر من أُرُومة فولتيرية، فقد كان يمجد الروح الآرية ضد

الروح السَّامية، ويقدس الحضارة الهيللينية القائمة على عبادة العقل والحرية والجمال، بينما كان يمتهن الحضارة العربية الإسلامية خاصة والسامية عامة، بوصفها عاكسة لجبرية كسولة، وإيمانية مغلقة، وعدم تسامح، وامتهان للفنون، ومناهضة للتفكير العلمى والفلسفى، ويذهب فى هذا الاتجاه ـ مع بعض الترددات ـ ارنست رينان Renan.

فى هذا الإطار ينبغى الإشارة إلى أن الاستشراق رغم أنه ذو جذور موغلة فى القِدم، فإنه لم يتبلور كمفهوم إلا فى نهاية القرن الثامن عشر ومشارف القرن التاسع عشر؛ فمفهوم المستشرق Orientalist (أى العالم أو الدارس للشرق أو لغاته أو أديانه أو حضارته .. إلخ) ظهر فى اللغة الانجليزية فى سنة ١٧٧٩، وفى الفرنسية ظهر سنة ١٧٩٩. ولم تعتمد الأكاديمية الفرنسية فى قاموسها كلمة استشراق Orientalism إلا فى عام ١٨٣٨.(٥)

وكان الاستشراق فى القرن التاسع عشر يستخدم ثلاثة علوم إنسانية أكثر من غيرها ـ ورينان نفسه نموذج لهذا ـ أعنى تاريخ الأديان، والألسنية التاريخية والمقارنة، وعلم الانثروبولوجيا الفيزيقية (= البدنية).

وقد نشأ تاريخ الأديان "من نضال التعددية البرجوازية ذات النزعة النسبية ضد المونوبول (الاحتكار) الايديولوجى المسيحى، وكان يعلّق اهتماماً كبيراً على دراسة الأديان الشرقية كبدائل ماضية أو حاضرة عن المسيحية. إنه يُعوّد الناسَ ـ مع المثالية النظرية الكامنة للعصر ـ على اعتبار أن جوهر كل حضارة ونواتها الأساسية يقعان فى الدائرة الدينية وأن كل شىء يمكن أن يعلل انطلاقاً من ذلك(٦)". أما الألسنية التاريخية والمقارنة فتميل إلى اعتبار كل أمة متماثلة مع لغتها، وقرابة اللغات تستلزم قرابة الروح التى تعدّ علة

كل التطورات التاريخية. وبالنسبة للانثروبولوجية الفيزيقية فتصنف الأمم فى عروق وجواهر متمايزة. وقد نجم عن هذه العلوم تضخيم وهمى غير محدود إما لفعالية الدين أو اللغة أو العرق، وتم إهمال العيانى والواقعى والمعاصر لحساب العصور القديمة باعتبارها العصور الدالة على سمات كل أمة بشكل نهائى وحاسم! ومن ثم حدث طلاق أكثر فأكثر بين نتائج هذه العلوم والعيانى والواقعى بكل معضلاته، وبينما كان الهدف المرسوم هو إعطاء أساس علمى عقلانى للدراسات الاستشراقية سعياً وراء تفكيك الأساطير والآراء السخيفة المتداولة عن التراث الدينى الشرقى، نجد أن المحصلة هى تشكيل عدد ضخم من الأساطير والخرافات الغربية الجديدة حول الإسلام. فضلاً عن اضفاء "صبغة علمية على الأضاليل القديمة والخرافات والقوالب النمطية الغربية العتيقة عن الإسلام ... إن الأغلبية المطلقة من مستشرقى القرن التاسع عشر لم يتخلصوا من المواقف المسبقة الموجهة ضد الإسلام، سواء أكان عداؤها صريحاً مباشراً وعنيفاً، أم كان يتسم بعدم الارتياح تجاه الشعوب الإسلامية"(٧). وحتى حين يذهب الغربيون إلى الشرق، فإنهم ينتقون فحسب الشواهد التى تدعم الرؤية النمطية الغربية الموروثة، صارفين النظر عن كل ما يتعارض معها.

ومن الناحية المتعلقة بالدوائر الاستراتيجية الغربية، فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، تكونت صورة مزدوجة عن الإسلام : فمن جهة لا يزال الإسلام عدواً، لكنه صار عدواً مهزوماً يخشى جانبه عندما ينزع إلى الوحدة أو الجامعة الإسلامية، وبصفته تعصباً للبرابرة المناهضين للاستعمار الأوربى ذى النزعة الإنسانية الكونية. ومن جهة أخرى، تم النظر إلى الإسلام بوصفه يمكن أن يُفهم بطريقة استكانية تجعل منه عامل تثبيت

واستقرار، ومن ثم يُتاح توظيفه فى المحافظة على الأوضاع السياسية التى يسيطر عليها حكّام أصدقاء.[٨]

أى وصف إذن يمكن أن يُطلق على القرن التاسع عشر : عصر الوضعية أم عصر الأيديولوجية؟ إنه لأمر مفارق أن عصر الوضعية هو نفسه عصر الايديولوجية. وهذا الحكم الذى ينطبق على العصر كله، ينسحب بلا أدنى مجاوزة للدقة على رينان؛ فرينان المخلص للوضعية لم يستطع أن يتخلص من براثن الايديولوجية.

وضعية حركة الإصلاح إزاء الإستشراق

"يهتم (منهج العروة الوثقى) بدفع ما يُرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التى يوجهها إليهم مَنْ لا خبرة له بحالهم ولا قوف على حقائق أمورهم وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون...."

جمال الدين الأفغانى

العروة الوثقى، ص ٨